محاضرة

هموم طالب العلم

لمعالي الشيخ

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

الحمد لله الذي جعلنا مسلمين، وتفضَّل علينا بإكمال الدِّين، أحمده سبحانه علىٰ لطف عنايته وجميل رعايته، فبرحمته تنقشع الهموم وتتبدَّد الغموم.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله..

اللّٰهمَّ صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللّٰهمَّ بارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد. أما بعد،،

أيها المؤمنون، إن الله قد خلق الإنسان فسواه وعدله وجعله في أحسن تقويم كما قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾ [الانفطار]، وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾[التين: ٤].

ومن بديع هٰذه الخِلقة واستوائها أنْ جعل الله ﷻ من البدن عضوا تخضع له بقية الأعضاء وتتبع، فهو ملِكها وسيدها ومتولي تدبير أمرها؛ ألا وهو [القلب]، فالقلب ملك البدن والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإن خبُث الملك خبثت جنوده.

وبرهان هذا: الحديث الذي أخرجه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قال حدثنا: أبو نُعيم قال: حدثنا زكريا، عن عامر -يعني الشعبي- عن النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: فذكر حديثا طويلا وفيه: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسُدت فسُد الجسد كله، ألا وهي القلب» مما يوجب تعظيم شأن القلب ويحمل علىٰ الاعتناء بالواردات القلبية ليُرعىٰ محمودُها ويُقمع مذمومُها، فيُحفظ القلب بذلك صحيحا قويا سليما من الانجذاب إلىٰ كل شبهة وشهوة، سليمًا يُدخل صاحبه إلىٰ الجنة كما قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ ﴾[الشعراء].

ومعرفة دقائق الأحوال القلبية وتقلبات النفس البشرية بابٌ من الفقه عظيم، والحاجة إليه أكيدة، فهو سبب سعادة الدارين وصلاح النشأتين، وقد كان اسم الفقه يشمله عند السلف كما ذكر أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في صدر كتابه «منهاج القاصدين».

فلما ضعفت القلوب عن حمل العلم كله تقاسم الناس ميراث النبوة، وصار بعضهم في علم دون علم، وآل الأمر إلىٰ إهمال علم القلوب والنفوس، وشُهر به طوائف من الزائغين عن القرآن والسنة، وأحدثوا لإصلاح القلوب أحوالا وأقوالا ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان، لكن لم يزل في أهل السنة والحديث من ينزع بفهمٍ في هٰذا العلم ويستخرج درره من لجة بحر الكتاب والسنة، فمنهما يخرج اللؤلؤ والمرجان.

فكتب جماعة منهم من السلف والخلف في الأحوال القلبية والخواطر النَّفسية، فلله درهم وعليه شكرهم، والقرآن والسنة كافيان وليس دونهما كاف، وشافيان وليس دونهما شاف، ففيهما الجواب الكافي والترياق الشافي كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «النونية»:

والكل في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقان

والله ما قال امرئ متحذلق ... بسواهما إلا من الهذيان

ومن جملة الواردات القلبيَّة: الهمّ الذي يعتريها، وحقيقته: أنه حال تعتري القلب فتُذيب النفس في طلب مرغوب أو خوف مرهوب، فالهمُّ حال، ومحل ذلك الحال هو القلب، ومآله إذابة النَّفس، وغايته طلب مرغوب أو خوف مرهوب، وينتج من هذا أن الهمّ همّان:

أولهما: همٌّ تقوىٰ به النفس ويجذبها للوصول إلىٰ مقاصدها.

والثاني: همٌّ تضعف به النفس ويمنعها من الوصول إلىٰ مقاصدها.

واختص الهمّ المقوِّي للنفس باسم الهمّة، والقول فيه مُرجًىٰ إلىٰ مقام آخر، والمقصود بالقول هنا: هو **الهمّ المقلق للنفس المفرِّق لشملها المبدد لقوتها**، وعلامته فيها: تبدُّد القوىٰ وتشتُّت الذهن وكَلَحُ الوجه وضعف الرَّغبة ودوام الفكر فيما يُستقبل من الزمان، وأبوابه كثيرة وأنواعه وفيرة، وأسبابه متكاثرة تعدَّدت بتعدُّد مطالب النفوس العلية والدَّنِيَّة.

وكيف لا يكون الهمّ بهذه المنزلة كثرة ووفرة ونحن في دار البلاء والفتنة والكدر والمحنة، فالدنيا دار الأكدار والأقذار والهموم واللَّأواء والغموم، قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾[البلد]، أي: في عناء ومشقَّة، وقال ابن ماجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: حدثنا غِياث بن جعفر الرَّحَبي قال: أنبأنا الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن جابر يقول: سمعت أبا عبد ربه يقول: سمعت معاوية رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من الدنيا إلَّا بلاء وفتنة».

ومما قيل شعرًا في هذا المعنىٰ قول أبي الحسن التِّهامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

طبعت علىٰ كدر وأنت تريدها صفوا من الأقذار والأكدار
ومُكلِّفُ الأيام ضد طباعها مُتَلمّسٌ في الماء جذوة نار

وكان أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يتمثل بهذين البيتين كثيرًا، وهٰذه الدار بكل زخرفها وزينتها هي سجن المؤمنين، والسجن دار الهمّ كما ثبت بذلك الخبر عن النبي ﷺ فيما رواه مسلم بن الحجاج في «صحيحه» قال: حدثنا قتيبة بن سعيد قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرَّحمٰن، عن أبيه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

قال فتح الموصلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أحد العبَّاد الصالحين: (كنا قوما من أهل الجنة، فسبانا إبليس إلىٰ الدنيا، فليس لنا إلا الهمّ والحزن حتىٰ نرد إلىٰ الدار التي أُخرجنا منها).

وما أحسن قول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

فحيّ علىٰ جنات عدن فإنها منازلك الأولىٰ وفيها المخيّم
ولكننا سبْيُ العدو فهل ترىٰ نرد إلىٰ منازلنا ونُسلّم

فالدنيا إذا هي دار المشقة والعناء وفيها الهموم والغموم، ومن أعظم منشآت الهمّ في القلب: أن هذه الدنيا طبعت علىٰ هذه الحال.

ومن أسباب الهمّ أيضا: ما جُبِلت عليه النفس من الهلع والسوق إلىٰ الخوف والجزع كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١﴾ [المعارج].

فالجبلَّة النفسية إذا انقاد لها صاحبها ولّدت الهمّ في قلبه، ومنها وسوسة الشيطان وتزيينه وجلبه بخيله ورجله ترهيبا وترغيبا كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥]، قال أهل العلم في التفسير: يخوفكم بأوليائه لتخافوهم، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨]، في آياتٍ أخر تكشف الدور الخفي للشيطان الرجيم في إحداث الهموم والغموم.

ومنها الاسترسال في الخواطر، فطبيعة المرء جَولان الخواطر في نفسه، ومن لم يحسن حراسة خواطره جرّه الخاطر بعد الخاطر إلىٰ فكرة تستقرُّ في نفسه ينتج منها الهمّ والغمّ، ومنها ضعف الإيمان وقلة اليقين لغلبة المعاصي وكثرتها، ومن ضَعُفَ إيمانه وقلّ يقينه صار عُرضة لسهام الهموم، فإذا شكّ فؤاده واحد منها قتله لركونه إلىٰ نفسه ونسيانه لربه.

ومنها تكاثر الفتن، فالفتن المصبّحات والممسّيات تزعج النفس وتُبَلْبِلُ خواطرها وتكثّر أفكارها، فيُجرف العبد بالهمّ وراءها ويصير الحليم حيرانا بأحداثها، ومنها قلة المعرفة بالعلل النَّفسية والآفات القلبية مما يُقعِد العبد عن الاهتداء إلىٰ سبيل دفعها، فَتَحفُّهُ مسبِّبات الهموم فلا يحيط علما بها، ولا ينتبه إلىٰ خَتَلِها حتىٰ تعمل في نفسه عملها.

والقلوب تتفاوت في الهمّ والغمّ تفاوتًا كثيرا بحسب ما فيها من الإيمان والعصيان والقوة والضَّعف كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «بدائع الفوائد»، وما جعل الله عَجَّلَ داء إلا وله دواءكما صحت به الأخبار عن النبي المختار ﷺ، والهمّ داء من الأدواء، وفي القرآن والسنة وتجارب الأمم بحمد الله دواء الداء.

ومجموع ما يُلتقط من هذا وذاك تقرير أن للهمّ نوعين من الأدوية:

أحدهما: الأدوية الشرعية الموصوفة في خطاب الشرع.

والآخر: الأدوية القدرية الموصوفة في لسان الأمم.

والإتيان علىٰ جمهورها مع قرنها بالأدلة يحتاج إلىٰ وقتٍ طويل، لكن نسرد منها هٰهنا ما ينتفع به إلىٰ حين.

فمن الأدوية الشرعية: التوحيد وتنزيه الرب عن الظلم، واعتراف العبد بتفريطه وتوسله إلىٰ الله بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، واستعانته به وتوكله عليه ورجاؤه إياه، والرَّتْعُ في رياض القرآن، والاستغفار والتوبة والجهاد والصلاة، والبراءة من الحول والقوة، والإيمان والعمل الصالح، والدعاء والذكر، وجمع النفس علىٰ ما ينفع، وعدم التشاغل بما فات، وحُسن الظن بالله، وشهود المنّة الربانية بتكفير الخطايا بالهمّ والغمّ.

ولابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ فصلان نافعان ماتعان لا نظير لهما في الجزء الرابع من «زاد المعاد» بيّن فيهما الأدوية الشرعية لدفع الهموم والغموم، وكيفية تأثير تلك الأدوية في دفع هٰذا الداء.

ومن الأدوية القدرية: حَسْم الأعمال في الحال، والتفرغ للمستقبل، وطرح التكلف في أخذ الفضائل وتخَيُّر الأعمال الفاضلة، وتوطين النفس علىٰ أن لا تطلب الشكر إلا من الله، والعلم بأن أذية الناس لك بقول أو فعل لا تضرك وإنما تضرهم، واستحضار قِصَر الحياة الدنيا، فلا ينبغي أن تُقَصَّر زيادة في الهمّ، ورياضة النفس علىٰ معاناة مر القضاء وتعويدها الصبر.

ذكر هؤلاء جميعا ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «الوسائل المفيدة في الحياة السعيدة».

ومن الأدوية القدرية أيضا استعمال ما فيه صُفرة، فإن الصفرة تبسط النفس وتذهب بالغمّ، ذكره أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «البحر المحيط»، وشاهده قوله تعالىٰ في بقرة بني إسرائيل: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩﴾[البقرة].

ومنها الطب وإتيان الزوجة، وقد ذكرهما أبو الفرج ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في بعض رسائله.

ومنها الرمي، فإن له أثرا في إذهاب الهمّ والغمّ كما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتاب «الفروسية».

ومنها لبس الفضة كما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «زاد المعاد».

ومنها النظر في الأنوار والأزهار والأديار المليحة والألوان الحسنة، ذكره السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «الشمائل الشريفة».

وما تقدم من الكليات في أسباب الداء وأنواع الدواء لا يمنع من وجود تفاصيل لها تختلف باختلاف الهموم كما يكون ذلك في البدن من إجمال وتفصيل في الداء والدواء، ومهما يحار المرء في معرفتها فإن المُطّلع علىٰ أحوال الناس يقف علىٰ أدوائهم وأحوالهم في أنواع الهموم ويطّلع بتجربته علىٰ سبل دفعها.

ومن الهموم التي تلزم معرفتها للبحث في سبل زوالها هموم الطَّلب، لأن الطلب هو السبيل الموصل إلىٰ الله ﷻ بمعرفته ومعرفة أمره المفضي بصاحبه إلىٰ الجنة، وإذا لم تُتعَرَّف همومه وطرق مداواته أضرّ ذلك بالمتعلمين وقطعهم عن العبودية لربِّ العالمين.

ولأجل هذا اخترت أن أتحدث إليكم الليلة عن جملة من هموم الطَّلب، وأصف الأدوية النافعة التي تتبعها مقتصرًا في ذلك علىٰ المهمات سائلا الله لي ولكم التوفيق وبلوغ الغايات.

الهمّ الأول: همّ الإخلاص:

إذ يُلقىٰ في نفس قاصد العلم الخوف من الرِّياء والتسميع، فيقع عليه الهمّ أهو مخلص في العلم أم لا؟، ولا يعرف الرياء إلا المخلصون، ولا يتلمّسه في جنبات النفس إلا الصادقون، أما الصارف عن مجاذبة نفسه همّ الإخلاص فعلىٰ شفا هَلَكَة، فورود هذه الهمّ علامة خير إن شاء الله، ومن الفقه اللازم معرفة مقاصد النية في طلب العلم، فإن النِّية في طلب العلم تقوم علىٰ أربع أصول:

أولها: قصد رفع الجهل.

وثانيها: قصد رفع الجهل عن غيره.

وثالثها: قصد حفظ العلوم من الضياع.

ورابعها: قصد العمل بالعلم.

وإلىٰ هؤلاء أشرت:

ونيـة للعلـم رفـع الجهـل عَـمْ عـن نفسـه فغيـره مـن النَّسَـم
وبعـده التحصـيل للعلـوم مـن ضيـاعها وعمـلٌ بـه زُكِـنْ

فزوال هٰذا الهمّ بتلمّس هذه المقاصد في نية الطلب لتصحّ وتستقيم، وليكشف كل واحد منكم عنها في قلبه حقيقة ومعنىٰ، فإن وجدها فليحمد الله فبفضله هُدِيت، وإن لم يجدها فليكشف وليجاهد عن نفسه في طلبها فإنه يُعانُ علىٰ ذلك ويُيَسر له الأمر.

وقد وقع هذا لجماعة من السلف رحمهم الله تعالىٰ، طلبوا العلم بلا نية ثم سعوا في تصحيحها فصلحت نياتهم واستقامت أحوالهم.

قال مَعمر بن راشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (كان يقال: إن الرجل ليطلب العلم لغير الله، فيأبىٰ عليه العلم حتىٰ يكون لله) قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «سير أعلام النبلاء» عقب ذكره له: (نعم، يطلبه أولا والحامد له حب العلم وحب إزالة الجهل وحب الوظائف ونحو ذلك، ولم يكن له علم وجوب الإخلاص فيه ولا صدق النية فإذا علم حاسب نفسه وخاف من وبال قصده فتجيئه النية الصالحة كلها أو بعضها، وقد يتوب من نيته الفاسدة ويندم)اهـ.

وليحذر العبد من النكوص عن السعي في طلب العلم بدعوىٰ عدم القدرة علىٰ الإخلاص فيه، فإن الشيطان يفتح لك باب شرٍّ بمفتاح نُصح، ولم تؤمر بهذا، بل أُمرت بالصبر والمصابرة، والجهاد والمجاهدة، ووُعِدَ الصابر المجاهد بالفلاح والهداية كما قال الله تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[العنكبوت:٦٩].

الهمّ الثاني: همّ عدم الاهتداء إلى طريق العلم

إن بلوغ المطالب مرهون بسير الطالب، فإذا حثّ خطاه وميّز صواب الطريق وخطاه ظفر بمقصوده، ومما يصح به السير لبلوغ الخير؛ الاهتداء إلىٰ طريق الطلب، لأن إضلاله وعدم الاهتداء إليه يضيع به عمر كثير ولا يُحصَّل إلا علم يسير، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «الفوائد»: (الجهل بالطريق وآفاتها

والمقصود؛ يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة)اهـ.

وأكثر المقبلين علىٰ طلب العلم يعلمون أن له طريقا لكنهم يجهلون تفاصيله، فيُقبِل أحدهم علىٰ العلم يُقدِّم رجلا ويؤخر أخرىٰ وفرائصه ترتجف خشية أن يضع قدمه في غير موضعها، فيضعف سيره بسبب ورود هٰذا الهمّ.

ومما يندفع به هذا الهمّ إرشاد العارفين بالطريق من شيوخ العلم والتعليم الذين ركبوا بره وبحره، وعرفوا سهله ووعره، فلا بد للطالب من شيخ مرشد يُعرّفه مراحل الطريق ومنازل القوم وموارد مائهم، والأصل في هذا ما أخرجه أبو داود في سننه قال: حدثنا زهير بن حرب وعثمان ابن أبي شيبة قال: حدثنا جرير عن الأعمش عن عبدالله بن عبدالله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «تسمعون ويُسمع منكم، ويُسمع من سمع منكم» وإسناده قوي.

والعبرة بعموم الخطاب لا بخصوص المخاطبين، فليس هذا محصورا في الصحابة رضوان الله عليهم، بل لا يزال العلم في هذه الأمة موروث بتعاقب القرون يأخذه الخالف عن السالف كما ذكره الشاطبي في «الموافقات»، فإذا اتخذ الطالب شيخا عارفا بالطريق أحسن هدايته إليه وبيّن سهله ووعره وحمله علىٰ آمَنِه، وباعد بينه وبين عوائقه، وإذا انفرد الطالب بنفسه في السير عظم عليه هذا الهمّ وضيّع معالم الطريق ففاته من العلم أبواب عظام ولحقه تعب كبير.

الهمّ الثالث: همّ صعوبة العلم

يقف علىٰ مرابع العلم ومضارب قومه طوائف شتىٰ يريدون بضاعتهم ويحبون طريقهم، ولكن حِيل بينهم وبين ما يشتهون من لذائذ العلم وموائد الفهم بعارض عرض لهم فاستسلموا له، وهو القول بصعوبة العلم، ولا ريب عند المؤمنين أن الأصل العظيم للعلم وهو الوحي المبين الذي جاء به خير المرسلين سالمٌ من هذا، فالله يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾[القمر].

فعلم الرسالة الذي عُلّق به الثواب والعقاب، وقُسّم الخلق إلىٰ أبرار وفجار مُحال أن يكون صعبا علىٰ الأفهام ثقيلا علىٰ النفوس، إذ لو كان كذلك لاستُبعِدت الرحمة الإلهية وضَعُفت الحجة الرسالية، بل العلم النافع المستخرج من مشكاة القرآن والسنة نور علىٰ نور يهدي الله لنوره من يشاء، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور.

وأولىٰ العلم باليسر هو العلم الذي يلزم كل أحد من الناس، وهو أصل الدين الذي لا يكون المرء

مسلما إلا به مما يجب عليه ابتداء من توحيد الله وطاعة الرسول ﷺ وأداء الفرائض واجتناب النواهي، وتأمل هذا في جوامع الكلم القرآني والنبوي تؤنس القصة وتذوق حلاوته.

وإنما يصعب العلم إذا لم يؤخذ كما ينبغي ويؤخذ كأخذ الجهال، وقد كان علي ﷺ يقول: (العلم نقطة كثّرها الجاهلون)، وإنما أراد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ بهذه المقالة بيان يسر العلم وسهولته، وإنما العيب من جهالة الجاهلين من الدالين عليه أو المتكلمين فيه أو الصادين عنه.

ويُدفع هذا الداء من الهمّ بالبداءة بالأهمّ من العلم والاختصار علىٰ المتون الصغار المصنفة في فنون العلم حفظا واستشراحا، وترك التشاغل بمطالعة المطولات لئلا تثقل علىٰ القلب، ومن أخذ بهذه الوصية مشتغلا بالأهمّ فالمهمّ آخذا لذلك من المتون القصار، حُبِّب إليه العلم ويُسِّر له سبيله وظهرت له سهولته، وأُلين له فيما يُستقبل صعبه ووعره.

الهمّ الرابع: همّ كثرة المتصدين للتعليم والإفادة.

مما يُفرّق النفس ويُذهب قوتها الحيرة فيمن يُهتدىٰ بهداه ويؤخذ بإرشاده من الشيوخ، فالمبتدئ في طلب العلم يرىٰ في كل التفاتة شيخا لم يره من قبل، ودرسا لم يحضره في مثله قط، ومن كثر التفاته كبر عليه الأمر وثقل، فلا يعلم أي هؤلاء عليه يُقبِل، ولا من أيهم إرشادا ونصحا يَقبَل.

ويُضاعَف همّه إذا سمع من كل واحد منهم وصفا لطريق العلم لم يصفه به الآخر، فيتفرق بهذا الهمّ شمله ويتشتت عمله وقوته، وكثرة المتصدرين والمفيدين من شيوخ العلم والدين مما يحمد ويمدح، لكن إن لم يُعرَّف الطالب بطريق الاستفادة منهم أضرّ ذلك به، والشيوخ متفاوتون في اكتمال أوصاف الأهلية في التعليم والتزكية، ومن اجتمعت فيه صفات الكمال كان أولىٰ من غيره، وترجع كمالات الشيوخ إلىٰ أصلين:

أولهما: الإفادة: وهي الأهلية في العلم، فيكون ممن عرف بطلب العلم وتلقيه حتىٰ أدرك فصارت له ملكة قوية فيه.

وثانيهما: النصيحة: وهي صلاحية حال الشيخ للاقتداء والاهتداء، ومعرفته بطرائق التعليم ليوصله إلىٰ المتعلم.

ويتفقد الطالب هذه الكمالات في الشيوخ، ويحرص علىٰ ملاحظة أحوالهم ويشاور أهل النصح فيهم ويصبر في انتخاب مَن يصلح للطلب منهم، ومما ينبغي ملاحظته أن وجود هذه الكمالات مع كبر السن

أحرىٰ، فالبركة مع الأكابر، ولهم مع طول المدة ورسوخ العلم وكمال الفهم واستقامة النفس وصلاح الدين والميل عن الدنيا ومباعدة أسباب الشر بخلاف غيرهم من الشباب.

الهمّ الخامس: همّ ازدحام العلوم

إن ازدحام العلوم في السمع يضيع الفهم، فإن للقلب قوة كقوة البدن، واحتماله للعلوم هو علىٰ قدر قوته، فإن كان القلب قويا احتمل العلوم وازدحامها وإلا عجز عنها، والطلاب المبتدئون والمتوسطون لا يجدون قوة كافية لحمل العلوم المتنوعة في آن واحد.

والمخرج من هذا الهمّ هو جمع قوة النفس علىٰ مطلوب واحد، ومنه الاكتفاء بدراسة متن واحد يأخذه الطالب عن شيخه، وقد ذكر الزبيدي في «شرح الإحياء» عن صاحب كتاب «الذريعة» في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[البقرة:١٢١]، قال: (أي: لا يتجاوزون فنّا حتىٰ يحكموه علما وعملا، فيجب أن يقدم الأهمّ فالأهمّ من غير إخلال بالترتيب)اهـ.

ومن الشعر الحسن المشهور في شنقيط قول أحدهم:

وإن ترد تحصيل فن تمّمَه ... وعن سواه قبل الانتهاء مه
وفي ترادف العلوم المنع جا ... إن توأمان استبقا لن يخرجا

وسبيل السلامة من هذا الهمّ هو انتخاب كتب البداية التي يستفتح بها العلم، والمبادرة إلىٰ حفظ مبانيها وفهم معانيها واحدا واحدا بالتلقي عن الشيوخ، ويقتدّ في كل قطر بما جرىٰ عليه عمل أهله، وقد درجت عادة أهل هذا القطر علىٰ الابتداء بجملة من الكتب كـ«ثلاثة الأصول» و«القواعد الأربع» و«كتاب التوحيد» و«كشف الشبهات» و«شروط الصلاة» و«الأربعين النووية» و«العقيدة الواسطية» و«نخبة الفكر» و«الورقات» و«مقدِّمة التفسير» و«الآجرَّامية» و«الرحبية» و«بلوغ المرام» و«زاد المستقنع».

فيقصد طالب العلم إليها حفظا واستشراحا، وسيجد عقب ذلك قوة قلبية يقدر بها علىٰ تنويع العلوم والمعارف وتكثير الشيوخ والمعلمين، والحري بقاصد الفائدة هو الاجتهاد في تلمّس الجادة الهادية إلىٰ أخذ أصول العلم،والبحث عن الشيوخ الذين يقرأ عليهم بنفسه ويتدرج في تعلمه ويحرص علىٰ الأكابر منهم في السن والعلم، فإن الأخذ عنهم أنفع والبركة فيهم أكثر.

الهمّ السادس: همّ تعارض الدروس

إن انتشار الدروس إعلاء للشريعة وإظهار لمعالمها ورفع للوائها وعزة لأهلها، وفي ذلك من البركات: تَنزُّل السكينة وغشيان الرحمة وحفّ الملائكة وذِكر الله لهم فيمن عنده، فالحمد لله الذي جعل هذه البلاد دار توحيد لا دار شرك، ودار سنة لا دار بدعة، ودار علم لا دار جهل، وحفظ عليها إيمانها وأمنها وسدد علمائها وولاتها ووفقهم لما فيه خيرها.

وقد ينتج لآحاد المتعلمين من كثرة الدروس همّ عظيم وهو تعارضها، فنفس المتعلم تتوق لحضور روضة في التفسير، وينازعها حب درس الفقه غير أنها لا تستطيع الجمع بين هذا وهذا لوقوعهما في زمن واحد، فيضلّ المتعلم مشوّش الخاطر في هذه الواردات، يحضر طورا هنا ويحضر طورا هناك، ويترك هذا الدرس لأجل ذاك الدرس، ويضيع عليه بهذا الهمّ علم جمّ.

ولدفع هذا الهمّ فينبغي علىٰ المتعلم أن يعود نفسه الثبات علىٰ المقصود، **فإن مَن ثبت نبت**، ويُلزم نفسه السير علىٰ ما مضىٰ رسمه، ويقرر فيها بأن ما عَرَضَ له من درس جديد يمكن استدراكه بعد انقضاء الدرس الحالي؛ إما بالاستفادة من الأشرطة الصوتية أو المذكرات القلمية للدرس، كما أنه يمكنه أيضا قراءة الكتاب الذي قُرئ في الدرس الجديد علىٰ شيخ آخر.

ومَن ألزم نفسه بما التزمت وحَمَلها علىٰ ما له ابتدأت صار قائدا لها محسنا لسياستها، ومن اضطربت عليه نفسه جرّته يمنة ويسرة، والعزم مع الحزم، فالحازم في تدبير أمره يُعان بمَضاء عزمه، فكن حازما ذا عزيمة:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن تترددا

الهمّ السابع: همّ حفظ العلم وفهمه

إن العلم يُدرك بإعمال قوتين اثنتين:

أولاهما: قوة الحفظ.

وثانيهما: قوة الفهم.

وراغب العلم لا يدركه إلا باستعمالهما، فينشط ذاكرته حفظا وفهما علىٰ حد سواء، ومن ظن أن العلم ينال بهذا دون ذاك فقد خالف الأدلة الشرعية والبراهين القدرية، ورواد العلم يدركون هذا إجمالا ويجتهدون في الحفظ والفهم، لكنهم يلقون همّا في المحفوظ، أي شيء يُحفظ وكيف يبقىٰ؟ ويلقون همّا

في المفهوم، أي شيء يُفهم وكيف يبقىٰ؟ وإزالة هذين الهمّين المتلازميْن يكون بإدراك ثلاثة أصول:

أولها: معرفة المحفوظات اللازمة لطالب العلم التي يجعل فيها قوته.

وثانيها: معرفة المفهومات اللازمة له.

وثالثها: معرفة السبيل إلىٰ بقاء المحفوظات وثبات المفهومات.

فأما المحفوظ اللازم لك فعماده المتون التي درج الناس في بلدك علىٰ تلقّيها، وقد ذُكر فيما مضىٰ أن أهل هذه البلاد درجوا علىٰ تلقّي متون معينة سميناها.

وأما المفهوم اللازم لك فلا يخرج في الغالب عن قراءة هذه المتون علىٰ الشيوخ وفهم معانيها، وكلٌّ منهما يقوم علىٰ قواعد يضيق المجلس عن سردها.

أما السبيل إلىٰ بقاء المحفوظ وثبات المفهوم فمرده إلىٰ تعاهد العلم ومذاكرته، وتعيين وقت لمراجعة المحفوظ والمفهوم، وقد أُمرنا بتعاهد القرآن الذي هو أصل العلوم وأسهلها فكيف بغيره؟ قال الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (إنما يُذهب العلم: النسيان وترك المذاكرة).

الهمّ الثامن: طول المدة في الطلب

من هموم طلب العلم طول مدته، ومن استطال الطريق ضعف مشيه، وانقطعت به السبيل دون بلوغ قصده، ويُزحزح هذا الهمّ عن النفس بتعريفها بعبودية العلم، فإن طلب العلم عبادة، والزيادة فيه خير زيادة لما يثمر من سعادة في الدنيا والآخرة، فإن كل خير في الدنيا والآخرة فهو ثمرة من ثمار العلم، وكل شر في الدنيا والآخرة فهو طلْعٌ من طلع الجهل.

وأول دفع لهذا الهمّ علمك بأنك تتربع في ظلال عبودية من عبوديات الخواص الذين اصطفاهم الله عَزَّ وَجَلَّ لحفظ دينه ونصرة شرعه، فإن نور هذه العبودية يدفع ظلمة هٰذا الهمّ، وإذا اشتغل الناس بدنياهم فيا حبذا حال من اشتغل بعبودية الله بالعلم، ثم لتعلم أن العلم لا يؤخذ جملة واحدة، بل يؤخذ بالأيام والليالي، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨].

وفوق هذا أن تعلم أن حقيقة العلم المأخوذة عن الشيوخ ليست هي المسائل كما يظنه أكثر المتعلمين، بل هي الدين كله، فتحتاج إلىٰ طول الصحبة لتطّلع علىٰ سمت الشيخ وهديه، وتعرف طريقته في هداية الناس وتعليمهم وفصل خصوماتهم والتأليف بين قلوبهم، والتّعامل مع النوازل

والقوارع المفجعة، وهذا لا يدرك إلا بطول الصحبة، ولما عقل السلف رحمهم الله تعالىٰ هذه المدارك في صحبة الشيوخ طال عكوفهم الرُّكب بين أيديهم.

قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (كان الرجل يختلف إلىٰ الرجل ثلاثين سنة يتعلم منه العلم)، وسئل الطبراني رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ صاحب «المعاجم»: بمَ أدركت العلم؟ فقال: (بالجلوس ثلاثين سنة علىٰ البواري) يعني: علىٰ الحُصر والبُسُط، وقال يعقوب بن سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (رحلت في العلم ثلاثين سنة)، ورأيتُ في تزكية صادرة من العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ لشيخنا محمد بن عبد الرَّحمٰن آل الشيخ يذكر فيها أنه قرأ عليه في الفقه والحديث والتفسير والعقيدة وغيرها خمسا وثلاثين سنة.

الهمّ التاسع: همّ تأخر ظهور آثار العلم

مما تضيق به صدور المتعلمين تأخر ظهور آثار العلم الذهنية والعملية، فإن المتعلم يرجع إلىٰ نفسه بعد مدة من طلبه ليرىٰ آثار العلم فيها فلا يكاد يجد شيئا فيضيق صدره، وليس لضيق الصدر هنا محل، لأن السنين الأولىٰ من الطلب تكون بمنزلة تهيئة القلب للعلم حتىٰ يقبله ويرسخ فيه.

ونظير هذه الحال حال الزُرّاع الذين يبقىٰ أحدهم مدة قبل بدو آثار زرعه يمضيها في تقليب الأرض وقطع حشائشها وتهيئتها لما يزرعه فيها، ثم يبذر بذره ويتعاهده بالسقيا حتىٰ يقوم علىٰ سوقه، فلا بد من مضي وقت في بواكير الطَّلب لاستصلاح القلب وتهيئته لحمل العلم، حتىٰ إذا فُرغ من هذه الحال ظهرت الآثار الذهنية للعلم، فآنس الطالب قدْر ما حصّل.

أما الآثار العملية فهي مرهونة بزيادة الخشية، لأن الخشية تورث صلاح الحال وحُسن الأعمال، وتحصيل الخشية لا يتنج من طلب سريع للعلم، بل لا بد من مدة طويلة تدرك بها الأحكام الشرعية وتطّلع علىٰ المقاصد الحكمية، وتشرف نفسك علىٰ أحوال كُمّل البريّة، وبدو هذه الآثار يكون مع طول المدة برعاية شيئين:

أحدهما: تخلية القلب من علله وأمراضه بنزع ما فيه من غرس الجاهلية وقلع أسباب فساده.

والآخر: تحلية القلب بالفضائل والكمالات التي تقوي إيمانه وترسّخ يقينه.

ودوام المجاهدة في الأمرين يبلغ به العبد ذوْق حلاوة الإيمان المحازة بالعلم، ويرىٰ من نفسه انكسارا وخشية ومحبة لله وأُنسا بمناجاته، فلا تظن أنك تصير عابدا خاشعا بطلب العلم سنة أو سنتين.

الهمّ العاشر: همّ جمع الكتب

إن الكتب صناديق العلم وخزائنه، ونفس المتعلم مشغوفة بحبها، وتكاثرها عليه كتكاثر الظِّباء علىٰ خِراش:

تكــاثرت الضــباء علــىٰ خِــراشٍ فمــا يــدري خِــراشٌ مــا يصــيد

ويتولد من هذه الكثرة حيرة مفزعة يتبلبل بها خاطره، فإذا اشترىٰ كتابا ندم علىٰ ترك ثان، وإذا أراد شراء الجميع منعته قلة ذات يده، فركبه الهمّ وعلاه، ويُخلّص النفس من هذا الهمّ معرفة سياسة نافعة في جمع الكتب بتدريج ذلك علىٰ أصول:

أولها: الاعتناء بتحصيل المتون التي تُقرأ علىٰ الشيوخ ومهمّات شروحها، فيجعل ماله ابتداء فيها.

وثانيها: تحصيل الأصول المهمة من كتب الأمة كالصحيحين و«زاد المعاد» و«تفسير ابن كثير» و«البداية والنهاية».

وثالثها: حيازة مهمات الكتب بعد الأصول مقدما الأهمّ فالمهمّ.

ورابعها: ترتيب شراء الكتب بعد ذلك علىٰ العلوم بحيث يجعل مدة تبلغ سنة أو ستة أشهر حسب ما ينفق في الكتب لشراء كتب علم معين، ثم يشتري في السنة الثانية كتب علم آخر، وهكذا حتىٰ يكتمل عدّ العلوم.

وإقامة هذه الأصول يحتاج إلىٰ نحو عشر سنين يصل بعدها المتعلم إلىٰ الاكتفاء بشراء ما يراه نافعا من الكتب التي تصدر حديثا لأن قوام مكتبته قد وُجِد، وقد كتب جماعة من أهل العصر في تعيين الكتب اللازمة لطالب العلم فيستفاد مما كتبوا، ويحسن التذكير بأمرين:

أحدهما: الاهتمام بوضع قدر معين من مصروف ماله في شهره لشراء الكتب قلّ أم كثر، وإياك واستكثارَ مال تنفقه في شراء الكتب، واستفد من ارتياد معارض الكتب المخفَّضة، وتَردّد إلىٰ الدور التي يعرف اعتدال أثمان الكتب فيها.

والآخر: عدم الجري وراء كل كتاب جديد يصدر، فربما جرّ تتبع الجديد إلىٰ إهمال القديم المفيد، بل يحرص المتعلم في أوائل جمع الكتب علىٰ عدم النزع إلىٰ شراء كتاب صدر حديثا إلا إن كان كتابا يمثل شرحًا لمتن يدرسه أو كتابا من الأصول المهمات.

ولا يكمل دفع هذا الهمّ حتىٰ يعرف المتعلم بأن مما يلزمه الاعتناء باقتناء الطبعات المعتمدة لما

يشتريه من الكتب، لئلا يضطر إلىٰ شراء نسخة أو أكثر لكتاب واحد، ويتعرف جياد النسخ بسؤال أهل المعرفة والنصح من الشيوخ، ولا بد عند شراء الكتاب من الانتباه إلىٰ شيئين:

أحدهما: أن يكون ذلك الكتاب الذي اشتريته هو الكتاب الذي تبحث عنه وتسعىٰ إليه.

والآخر: كونه سليما من آفات النشر كالتمزق والبياض والطمس، فتتصفحه قبل شرائه لتعرف أمره.

الهمّ الحادي عشر: همّ الدراسة النظامية

مما يقظ مضاجع المتعلمين ما يقع في نفوسهم من همّ التعارض بين الدراسة النظامية في كلية أو مدرسة وبين تحصيل العلم علىٰ المشايخ في رياض الجنة بالمساجد، وتتنوع مسالكهم في دفع هذا الهمّ فتجد في صفوفهم من يجمع نفسه علىٰ همّ الطلب عند المشايخ مهملا دراسته النظامية، ومنهم من يعكس القضية، ومنهم من يحول دراسته النظامية إلىٰ الانتساب ليتفرغ لطلب العلم، ومنهم من يترك الدراسة النظامية حرصًا علىٰ عدم الانشغال بها.

وقد يجد هؤلاء لهم عذرًا فيما فعلوا، لكن الذي توجبه النصيحة في الدين خلاف ذلك كله، بل دفع هٰذا الهمّ يكون بالملائمة الحسنة بين النوعين من الدراسة ملائمة لا تفوّت الفائدة منهما، ومن طرائق ذلك الاهتمام بالدراسة النظامية مع الدراسة علىٰ الشيوخ دون إكثار من الثاني في أثناء الدراسة النظامية، حتىٰ إذا جاءت الإجازة الصيفية أو غيرها من الإجازات؛ جمع الطالب همته علىٰ القراءة علىٰ الشيوخ.

كما أن في ثنايا السنة الدراسية أُوَيْقات يمكن الاستفادة منها في بذل جهد أكبر للدراسة علىٰ الشيوخ كأوّل السنة، كما أن هناك أُوَيْقات لا يحسن الإقبال فيها عليهم كأيام الامتحانات خشية أن يلحقه ضرر بإهمال دراسته النظامية.

ومن الدراسات النظامية في بلادنا بحمد الله ما يكون عونا علىٰ تحصيل العلم كمن هيأ الله له الدراسة في كلية أو معهد شرعي، فلا ينبغي أن يتمادىٰ في إهمال مقرّرات دراسته، بل سينتفع بها بإذن الله ﷻ في جمع العلوم، والمشغولون طول عامهم بدراسات شاقة من المعارف الإنسانية كالطب مثلا فلهم متنفسان اثنان:

أحدهما: الإجازات الدراسية.

والآخر: الحياة العملية عَقِبَ التَّخرُّج، بل يمكن إرجاء بعض العلم لدراسته لمنهوم فيه بعد تقاعده من حياته العملية، كما فعل ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ، فإنه لم يأخذ علم القراءات إلا في آخر عمره وقد

جاوز الثمانين.

الهمّ الثاني عشر: همّ ازدحام المتطلبات

إن دقائق العمر مع ازدحام الحياة بأنواع المُشغلات باتت ضيقة لدىٰ كثيرين عن الوفاء بما هم مطالبون به شرعًا أو قدرا، فالمرء محكوم بمطالب شرعية كبرِّ والديه وصلة أرحامه وإصلاح زوجه وتهذيب ذريته، ومطالب قدرية كحفظ صحته ورعاية قوته وصيانة نفسه، ومن يطلب العلم فضلا عن المُغيث يلقىٰ عناء في تفقد العلم وتحصيله مع الوفاء بما يلزمه، فربما أخلّ بشيء مما سبق من المطالب فيثقل الهمّ عليه لقاء تقصيره.

والعروة الوثقىٰ إدراكه أولا أن هٰذه حقوق اللازمة لا بد من الوفاء بها، فإن لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ولولدك عليك حقا ولجارك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقَّه، ثم ليرتب تلك الحقوق مبتدئا بالأولىٰ منها ثم الذي يليه ثم الذي يليه، مع تنظيم وقته لإعطاء كل ذي حق حقه.

فمن عرف الحقوق اللازمة واطّلع علىٰ مراتبها ونظّم وقته للوفاء بها اندفع عنه هذا الهمّ، وأكبر سبب لضياع هذه الحقوق هو عدم تنظيم الوقت وحفظه، وهذه علة عمّت أهل الإسلام إلا من رحم ربك، فلا يعرفون للوقت قيمة ولا يرعون له حرمة، بل أمورهم خبط عشواء، ولأجل هذا تضيق الأوقات عن المتطلبات، ويستعين المتعلم علىٰ ذلك بدعاء الله أن يبارك له في وقته وبدنه، وأن يمده بالقوة للوفاء بما لزمه.

الهمّ الثالث عشر: همّ ضعف البذل في الدعوة إلى الله ﷻ

إن الدعوة إلىٰ الله أحسن الأقوال وأكمل الأعمال كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾[فصلت]، ومفتاحها العلم والبصيرة في الدين كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف].

والمتعلم ساع لتحصيل المفتاح، لكنه قد يجد من نفسه بسبب تتبعه للعلم وأخذه له بعدا عن دعوة الناس وإصلاحهم فيدركه الهمّ، ولعل الهمّ أن يتمادىٰ به حتىٰ يدفعه إلىٰ ترك الطلب سعيا إلىٰ إصلاح أحوال الناس، وإزالة هٰذا الهمّ ميسورة بحمد الله بأن تعلم أن المشتغل بالعلم هو داع إلىٰ الله، لأنَّ العلم وسيلة موصلةٌ إلىٰ الدعوة، والمشتغل بالوسيلة مشتغل بأصلها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ومن النَّكد اليوم ادعاء مفارقة العلم للدعوة، بل العلم أساس والدعوة رأس، والرأس بلا أساس لا يقوم وإقامة الأساس تحصل بطلب العلم، فطالب العلم الذي يتعلم وفي نيته إصلاح الخلق يوفق في طلبه ويؤجر علىٰ نيته.

ومما يدفع هذا الهمّ بعيدا؛ العلم بأن الواجب من دعوة الناس مناط بالقدر الذي يناله العبد من العلم، فليس الواجب علىٰ آحاد المتعلمين من المبتدئين والمتوسطين من دعوة الخلق كالواجب علىٰ العلماء والقضاة والمفتين، بل الواجب علىٰ كل أحد بحسب قدرته.

واللائق بسير الطالب المبتدئ هو جمع الهمّة في طلب العلم مع أخذ النية علىٰ إصلاح الخلق آخذا من العلم ما يتزود به في الإصلاح والهداية، وما مثلٌ يليق بحال طالب العلم والدعوة إلا بمثل ما يلبسه الإنسان صغيرا ولا يصلح له كبيرا، فإنك لما كنت صغيرا كنت تلبس لباسا صالحا لك، واليوم وأنت في هذه السن هو غير صالح لك، وكذلك في حال ابتدائك في الطلب يكون اللائق بك من الدعوة هو ما يناسب ما عندك من العلم، فإذا تزايد علمك فليتزايد قدر ما تبذله للناس من الدعوة والإصلاح.

ومآل الجامع للعلم هو أعظم النفع للخلق، فإن الدعاة الكاملين بعد الأنبياء هم العلماء الداعون لله ﷻ، فكم من جاهل علموه، وغافل نبهوه، وأسير للشيطان أطلقوه، وكم سمعنا عائبا يعيب مشتغلا بالعلم وطريقه وتحصيله في بواكير شبابه؛ فما هي إلا سنين قصار سنة بعد سنة وعاما بعد عام حتىٰ كان ذلك الطالب للعلم مع صدق نيته وقوة عزمته أعظم نفعا للناس وإيصالا للخير لهم من عائبين كثر كانوا يقطعون الطريق عنه بصرفه هنا أو هناك، ولكن الأيام مفصحة عن الحقائق، وأكثر الناس نفعا للناس هم العلماء.

الهمّ الرابع عشر: همّ النفقة والقوت

إن من مداخل الشيطان علىٰ النفس تخويفها الفقر والحاجة، وإعظام محبة الدنيا فيها، ولتسلط الشيطان علىٰ النفس يسري إليها همّ النفقة والقوت، ويقوىٰ ذلك في نفس طالب العلم مع تكرار الحديث عنه ورؤية لهث الناس من حوله في جمع حطام الدنيا ولا سيما في هذه الأيام.

ووسائل دفع هذا الهمّ عدة:

منها تطمين النفس بوصول الرزق إليها قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، فكفالة الله بالرزق تورث الطمأنينة بوصوله إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

[الذاريات]، وما من مولود يولد إلا ورزقه مكتوب وهو في بطن أمه.

ومنها اليقين بإعانة الله لأوليائه وأحبابه في أرزاقهم، فإن الله لا يضيع الساعين في حفظ دينه، بل يحفظ لهم أقواتهم وقوتهم، وأنتم ترون أن الملوك لا يضيعون حق من قام بخدمتهم، فهل يظن أن أعدل العادلين وأحكم الحاكمين يضيع حق من قام في نصرة دينه وحفظ شريعته.

قال ابن ماجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا شعبة، عن عمر بن سليمان، عن أبان بن عثمان بن عفان: فذكر قصة عن زيد بن ثابت رضي الله عنه وفيها: أن زيدا سمع النبي ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله عليه أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة».

ومنها إحسان الظن بالله، فقد أحسن إليك في رزقك مذ كنت رضيعا إلىٰ أن صلب عودك اليوم:

مـا لـك قـد أحزنـك الفقـر ... وقـد جمعـت الهـمّ في الصـدر
إن الـذي أحسـن فيمـا مضـىٰ ... يحسـن في البـاقي مـن العمـر

ومنها السعي في طلب الرزق والأخذ بأسبابه بما لا يقطع عن طلب العلم امتثالا لقوله الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ [الجمعة:١٠].

ومنها تعريف النفس بأن ما تحتاج إليه من الرزق هو ما يحفظ قوتها ويسد حاجتها.

قال ابن الوردي في «لاميته»:

ملـك كسرىٰ عنـه تغنـي كسـرة ... وعـن البحـر أجـزاء بالوشـل

وكان أبو عمرو بن العلاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ينشد:

دع الهـم بـالرزق يـا غافـلا ... فربـك منـه لنـا قـد فـرغ
فمـا لـك منـه إذا مـا افتكـرت ... بعقـل صـحيح سـوىٰ مـا مضـغ
وجـاز التراقـي بـلا مـانع ... وفاتـك بـالجوف لمـا بلـغ
فـدع ذكـر دنيـا تبـدت لنـا ... كسـم الشـجاع إذا مـا لـدغ

وما زاد عن هذه الحاجة ربما أفسد النفس وعوقبت به في الدنيا والآخرة:

النـار آخـر دينـار نطقْـتَ بـه ... والهـمّ آخـر هـذا الـدرهم الجـاري
والمـرء بينهمـا إن كـان ذا ورع ... معـذب القلـب بـين الهـمّ والنـار

الهمّ الخامس عشر: همّ إعفاف النفس بالنكاح:

إن الفطرة الإنسانية تقتضي ميل جنس النساء إلىٰ الرجال، وميل جنس الرجال إلىٰ النساء، وإجابة هذا

الداعي بالزواج تورث طالب العلم همّا خوفَ أن يقطعه الزواج عن مواصلة الطلب، وهذه أكذوبة شيطانية، بل من تاقت نفسه إلىٰ الزواج ووجد القدرة عليه لم يكن له أن يتركه إجابة لهذا الوارد.

ويزال هٰذا الهمّ بأمور منها: أولها: عدم توليده في النفس لمن غاب عنه، فمن لم يجد في نفسه رغبة فيه فليجتنب الفكر فيه والحديث عنه، لئلا يعيقه دوام الفكر عن الجدّ في السير.

ومنها وهو ثانيها: الاقتران بزوجة صالحة محبة للعلم معظمة لأهله ولا يلزم أن تكون طالبة علم.

ومنها وهو ثالثها: إحسان سياسة رعاية أحوال أهل البيت بحيث يحكم المتعلم أهله ولا يحكمونه، فلا يجعل تدبير الأمور إليهم.

ومنها حثّه لهم علىٰ مشاركته في الطلب وتحبيبهم فيه.

ومنها تعريفهم بما لهم من الأجر إذ يشاركونه في فضل طلب العلم لأنهم يعينونه عليه.

ومنها الاتفاق معهم علىٰ ترتيب الوقت لإعطائهم حقوقهم مما يحتاجونه في حق خاص أو عام.

ومنها مكافئتهم لقاء صبرهم وإعانتهم واختيار ما تميل إليه نفوسهم من الهدايا.

ولا فرق في إعمال هذه الأصول بين من تزوج واحدة أو ضمّ إليها غيرها، ولكن يجب لطالب العلم ألا يبادر نفسه بضمّ زوجة إلىٰ أخرىٰ، فكثرة الواجبات تثقله فيضعف سيره، بل يؤخر ذلك مدة حتىٰ يحصّل من العلم قدرا وافرا.

الهم السادس عشر: همّ إصلاح الذرية:

فالذرية عَقِبُ الرجل بعده، وصلاحهم يسرّه في الدنيا والآخرة، فمما لا ينقطع من عمله ولد صالح يدعو له كما ثبت في «صحيح مسلم»، وأمام شغل الطلب تضطرب النفس في أمر الذرية استصلاحا وهداية، وإذا زاد الإقبال علىٰ العلم استفادة وإفادة عظم هذا الهمّ، مع ما ذكره بعض أهل العلم من أن الفساد يسري إلىٰ أبناء أهل العلم لانشغالهم بالناس عن إصلاح أولادهم.

وينشأ من هذا أحيانا إخلال بحق النفس في العلم أو حق الولد في التزكية والهداية، والخَطْب يسير لأن المعين قدير وهو الله ﷻ، فمن صدقت نيته في العلم واستعان بربه علىٰ إصلاح الذرية أعانه الله ﷻ، لأن الله لا يضيع ذرية مَن قام يحفظ دينه.

ولكن لا بد هنا من تعاطي أسبابٍ تزيّن لهم الخير وتحببهم فيه، منها انتخاب زوجة صالحة ابتداء تكون أمًّا لهم تعين علىٰ إصلاحهم، ومنها دوام الدعاء لهم بالصلاح والهداية، فسريان دعاء الوالد في

ولده عظيم النفع لقرب الإجابة، فينبغي علىٰ الوالد أن يستكثر من دعائه لولده بالصلاح في خلواته وجلواته وشدتّه ومسرَّته، ومنها اصطحابهم إلىٰ رياض الذكر وحلق العلم لتدركهم بركتها وتشملهم رحمة الله فيطيب نباتهم مع صغر أسنانهم، ومنها تحبيبهم في العلم وحثّهم علىٰ التعلم ووضع المسابقات والجوائز فيه.

ومنها اختيار مؤدِّبٍ لهم إن أمكن يهذب أخلاقهم ويعلمهم كتاب ربهم، وحِلَقُ القرآن المبثوثة اليوم في مساجدنا تقوم بحمد الله بقدر كبير من ذلك.

ومنها ملاحظة أحوالهم في داخل البيت وخارجه ليقوَّم سلوكهم وتهذب نفوسهم إن حدث ما لا يحمد منهم.

ومنها شراء كتب وأقلام وأوراق خاصة بهم وجعلها في موضع المكتبة ليأنسوا بها ويتلهوا عن إشغال والدهم بما في أيديهم.

ومنها ترغيبهم في الاستقلال بحضور تلك الرياض والحلق إذا شبوا وقوي عودهم.

ومنها حفظهم من نوازع الشر وأبواب الإغواء ورفقاء السوء لئلا يعطب الولد بصحبتهم فيهلك.

الهمّ السابع عشر: همّ الركون إلى الدنيا

إن زخرف الدنيا وزينتها مزيَّن للنفوس كما قال الله ﷻ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾[آل عمران:١٤]، والحرص علىٰ الدنيا يولّد الهمّ والغمّ.

قال أبو عبدالله الداري: (كان أهل العلم بالله والقبول منه يقولون: إن الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، وإن الرغبة في الدنيا تكثر الهمّ والحزن، والبطالة تقسِّي القلب وتغير البدن) وقال بعض من مضىٰ: (إنما يحصل الهمّ والغمّ من جهتين: التقصير في الطاعة، والحرص علىٰ الدنيا).

وقلب طالب العلم مملوءٌ من شواهد الوحيين في ذم الدنيا وبيان حقارتها، غير أن نوازع الفطرة تجرّه إليها ومشاهد الزيف تحمله عليها، واللاهثون من حوله إليها يدعونه لموائدها، ويعلم أن له فيها حظا لابد منه لقوام عيشه وإصلاح حاله فيهتم بما يجري عليه من دواعيها.

ودفع هذا الهمّ يحصل بأمور:

منها دعاء الله ﷻ أن لا يغلبه الهمّ وأن لا تكون الدنيا أكبر همّه، ويستعيذ بالله ﷻ من شرها ويسأله

خيرها.

ومنها ترك الحرص والطمع. قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللهُ: (كثرة الحرص والطمع تورث الهمّ والجزع).

ومنها تقصير الهمّ فيها. قال الحرانيّ رحمه الله: (أكبر الهمّ والاهتمام إنما هو من طول الأمل، فلأجله تُتكلف الأعمال والأشغال وتُجمع وتُدّخر الأموال).

ومنها اعتقاد تقلّب هذه الدنيا وعدم ثباتها على حال. قال بعضهم: (الدنيا إن بقيت لك لم تبق أنت لها)، وكان يقال:

تروح لنا الدنيا بغير الذي ... غدت وتحدث بعد الأمور أمور
وتجري الليالي باجتماع وفُرقة ... وتطلع منها أنجم وتغور
فمن ظن أن الدهر باق سروره ... فذاك محال لا يدوم سرور
عفا الله عمن صيّر الهمّ واحدا ... وأيقن أن الدائرات تدور

فهذه الدنيا مقلّبة الأحوال متغيرة الحال لا تثبت على شيء، وإذا وقر هذا في القلب كان من أعظم ما يزهد فيها ويبعد عنها.

الهمّ الثامن عشر: همّ حال المسلمين

لقد صرنا أيها المؤمنون كقَصَعة تتداعى إليها أَكَلَتُها، فتسلّط على هذه الأمة أعداؤها وغلب أبرارَها فجارُها إلا من رحم الله، وحيث ألقى العبد بنظره واستسمع الأخبار بسمعه شاهد في الأمة جروحا نازفة وآلاما مؤرِّقة، وعامة المسلمين مهمومين بهذه الحال ومنهم طلاب العلم، ويعرض لهم هذا الهمّ في طريق الطلب فيحارون في كيفية التعامل معه، وربما حادوا عن السواء بسبب الغلط فيه.

وليس المخرج من هذا الهمّ إماتة حق المسلمين في التوادّ والتراحم من القلوب، وإنما المخرج منه بإرشاد القلوب إلى ما فيه منفعتها في تلك الأحوال، لأن كثيرا من أهل الإسلام إذا رأوا ما عليه حال المسلمين من الغربة وتبدل الدين علاه الهمّ والغمّ وأكثرَ التأسُّف والألم كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية، وهذا يؤذيه ولا ينفعه.

والنافع هو النظر في كيفية دفع هذه الغربة ووقف نزف الدماء ووجع الألم من الأمة، وكل واحد من أبنائها يجب عليه قدر يلائم حاله، ومن عرف هٰذا من طلاب العلم نجا وأنجا غيره، ومن جهله هلك وأهلك غيره، ومواصلة الطلب هو من إعداد العدّة لنصرة الأمة، فإن آخر هذه الأمة لا يُصلَح إلا بما

صلح به أولها، وجهل الأمة بدينها يوجب ضعفها، وعلمها بالدين يوجب لها القوة، فالبكاء والتباكي والصراخ والعويل والأحلام الطائشة لن تدفع مصيبتنا، بل يدفعها بناء المؤمنين وتقوية دعائم الدين بالعلم واليقين.

فلتكن عند ورود الهمّ ثابتا علىٰ طلبك قائما بما يجب عليك من النصرة، ولا تتكلف شيئا ليس لك، وإذا أردت هذا فانظر إلىٰ أحوال العلماء الراسخين في الفتن الجسام التي مرت بهذه الأمة ابتداء من فتنة الخليج الأولىٰ إلىٰ آخر هذه الفتن، وكيف أنهم لم يتركوا درسا ولا انقطعوا عن فتوىٰ، بل كانوا يغضّون السير لمواصلة العلم والتعليم هداية الناس ليقينهم أنه بدون علم بالدين لا تُدفع المعرّة عن المسلمين، بل لو كُبّل أحدهم بالقيود وأوصد في السجن بين الحشود لا يزال حرصه علىٰ تعلم الناس وهدايتهم، فالشيخ شيخ شيوخنا العلامة نذير حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ وهو من شيوخ سعد بن حمد بن عتيق وعلي بن ناصر أبو وادي من علماء هذه البلاد لما وضعه الإنجليز في السجن لم ينقطع عن إقراء «صحيح البخاري»..

الهمّ التاسع عشر: همّ تقلّد الولاية قبل بلوغ الغاية

مما يكون سببا للهمّ عند طالب العلم تقلده للولاية وهي تدبير الأمور في شيء ما قبل بلوغ الغاية منه، وكان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: (تفقهوا قبل أن تسودوا) أي: تصيروا سادة بتقلد الولاية، وأكثر ما يدخل الهمّ علىٰ المبتدئ والمتوسط في هذا المدخل من جهتين:

أحدهما: ولاية الإمامة والأذان.

والأخرىٰ: ولاية التعليم في المدارس الحكومية ونظائرها من وظائف المتخرجين.

فتقع نفس طالب العلم عُرضةً للنَّوازع بين القيام بالولاية وبين الاشتغال بالعلم، والحق أن السلامة لا يعدلها شيء، فمن لم يضطر إلىٰ شيء منها فتفريغ النفس للطلب أولىٰ، لكن من صار خائضا في شيء منها ولا قدرة له علىٰ تركه لأنه يرىٰ انتفاعه هو ببقائه فيها، فيدفع همّه بإعطاء كل ذي حق حقه.

فليجتهد في إحسان تدبير الولاية وأداء حقها مع الإقبال علىٰ العلم، ويغتنم الأوقات التي يسوغ له فيها النيابة بالولاية ليستفيد منها في طلب العلم كالإجازات أو ما يسمح به النظام من الاستئذان والإنابة، وليحذر إهدار الأوقات التي لا تعارض فيها بين طلبه للعلم وقيامه بالولاية كأوائل النهار بعد الفجر وأواسط الليل بعد العشاء.

الهمّ المكمل للعشرين: همّ التصدّي والإفادة

إذا تصدَّىٰ الحدث فاته علم كثير، والرئاسة في العلم للصغير تذهب بكثير من العلم، وفرح المتعلم بما حصّل ورغبته في الخير وتبليغ الدِّين تحمله علىٰ التصدِّي والإفادة، فإذا ذكر الأمر الأول ضعف، وإذا ذكر الأمر الثاني نشط، وهو بينهما مهموم بالعدل فيهما.

وطرد هٰذا الهمّ بإدراك الطالب أن حياته العلمية تنقسم إلىٰ وقتين اثنين:

أحدهما: وقت تحمل وأخذٍ للعلم.

وثانيهما: وقت أداء وتبليغ له.

ولا ينبغي أن يتشاغل في وقت التحمل بأداء يمنعه من الازدياد من العلم، بل يجعل نفسه مجموعة علىٰ الطلب والتحصيل ولا يمزق شملها بتصدٍ قاطع وإفادة مانعة من الزيادة، ولا يحول سيره وفق هذا من إرشاد مسترشد أو هداية مستهد بقدرٍ لا يقطعه عن مراده الأكبر وهو التحمل والأخذ للعلم، ومن سار في العلم مهتديًا بهذه القاعدة اندفع عنه همّ التصدي والإفادة لعلمه لأن زمانه هذا لا يصلح لذاك، حتىٰ إذا مُلئ علما تصدىٰ لنفع الناس وإفادتهم.

وبعد أيها المؤمنون، فهذه عشرون همًّا هي جِماع الأصول التي تجتمع فيها هموم الطّالبين، وقد بيَّنَّا أحوالها وسبل دوائها، فحري بقاصد النجاة والتحصيل للعلم أن يجتهد في دفع هذه الواردات إذا تكاثرت علىٰ قلبه، وليأخذ بهذه الأدوية النافعة فإنها مستخرَجة من مشكاة القرآن والسنة النبوية مُستصحَبٌ فيها تجارب الأمم الماضية، وليعلم أن هٰذا الطريق قد سلكه قبله سالكون، فليهتدي بهديهم وليستفد من إرشادهم وليستكثر من خيرهم فبذلك تندفع عنه الهموم والغُموم.

اللّٰهمَّ نفس كرب المكروبين، وفرج هموم المغمومين، واقض الدين عن المدينين، وأصلح أحوال المسلمين، اللّٰهمَّ إنا نسألك علما نافعا وعملا صالحا وإيمانًا زائدًا ويقينًا راسخًا، اللّٰهمَّ حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا اللّٰهمَّ من عبادك الراشدين، اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، اللّٰهمَّ احفظنا بالإسلام قائمين واحفظنا بالإسلام قاعدين واحفظنا بالإسلام نائمين، اللّٰهمَّ أحينا علىٰ الإسلام والسنة وتوفنا علىٰ الاسلام والسنة، اللّٰهمَّ هيئ لنا من أمرنا رشدا، واجبر كسرنا وارحم ضعفنا واستر زلاتنا وكفر سيئاتنا واغفر خطيئاتنا وتجاوز عما سلف لنا من أمرنا، وهيئ لنا فيما بقي من عمرنا صلاحا في أقوالنا وأحوالنا

وأعمالنا وذرياتنا، اللَّهمَّ إنا نسألك بركة في نياتنا وبركة في ذرِّيَّاتنا وبركة في أعمالنا وبركة في أقوالنا وبركة في قواتنا وبركة في أقواتنا.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

❁❁❁

الهمّ الأول: همّ الإخلاص:.. ٦

الهمّ الثاني: همّ عدم الاهتداء إلى طريق العلم ٧

الهمّ الثالث: همّ صعوبة العلم.. ٨

الهمّ الرابع: همّ كثرة المتصدين للتعليم والإفادة. ٩

الهمّ الخامس: همّ ازدحام العلوم.. ١٠

الهمّ السادس: همّ تعارض الدروس... ١١

الهمّ السابع: همّ حفظ العلم وفهمه ١١

الهمّ الثامن: طول المدة في الطلب... ١٢

الهمّ التاسع: همّ تأخر ظهور آثار العلم ١٣

الهمّ العاشر: همّ جمع الكتب.. ١٤

الهمّ الحادي عشر: همّ الدراسة النظامية... ١٥

الهمّ الثاني عشر: همّ ازدحام المتطلبات.. ١٦

الهمّ الثالث عشر: همّ ضعف البذل في الدعوة إلى الله ﷻ.. ١٦

الهمّ الرابع عشر: همّ النفقة والقوت ١٧

الهمّ الخامس عشر: همّ إعفاف النفس بالنكاح: ١٨

الهم السادس عشر: همّ إصلاح الذرية: ١٩

الهمّ السابع عشر: همّ الركون إلى الدنيا.. ٢٠

الهمّ الثامن عشر: همّ حال المسلمين ٢١

الهمّ التاسع عشر: همّ تقلّد الولاية قبل بلوغ الغاية.. ٢٢

الهمّ المكمل للعشرين: همّ التصدّي والإفادة ٢٣